براثن الأيدي الناعمة..

عرجت فى قلب أمير النحال حسرة وهم يقلدون فريد هنيدى بطلًا أول بالجامعة فى كمال الأجسام، ومع ذلك فقد تمكن من تحويل حسرته إلى سيل من المديح راح يكيله له أمام الناس مركزًا على أنه «ابن بلدنا الغالى» دون أن يعلم أن فريدًا ينتظر اللحظة المواتية ليقول له ما عنده، وعندما جاءت اللحظة قال فريد ما عنده لأحد أبناء النحال الثلاثة.. بدير.. وأمير.. والسيد.. فطالبه أولًا أن يخجل من نفسه ويبتعد عن طريق طاهر وفوزية، ثم طالبه ثانيًا أن ينصح السيد أن يخجل هو الآخر من نفسه ويبتعد عن طريق خميسة..

ـ «يكفى أنه شردها وتسبب فى حكم بالسجن لأبيها وزوجته، ما لكم هكذا تدمرون الناس؟ ولماذا تتركون خلفكم الخراب أينما سرتم؟.. وأنت أيها النذل كيف تبيع أخاك بعشرين جنيهًا.. ألا تخجل من كونك بعت البلد وبعت أمك وأباك وإخوتك ولم تفكر مرة واحدة فى السؤال عنهم»

وأسرع أمير إلى السيد ونقل له كل الشتائم التى أرسلها فريد هنيدى لهما عدا صفقة العشرين جنيهًا.. والحقيقة أن ما كان يسعى إليه أمير ليس نقل هذا اللقاء العاصف بقدر ما كان يصبو إلى معرفة أخبار خميسة الهاربة..

وعندما بدأ فى الالتفاف حول هذه النقطة كشفه السيد، وأنهى اللقاء بقدر كبير من القرف والسفالة.

* * *

ورغم حصوله على شرعية التواجد من آن لآخر فى أفق خميسة، إلا أنه وتبعًا لنصيحة مارى

ابتعد مؤقتًا عنها، ولأنه قد عثر على ما هو أهم منها: «أرض الزيتون» فقد استسلم للنصيحة.

وفى لقائه الدائم برجله عنتر مكاوى على مقهى اللواء فى المبتديان، وبعد أن اطمأن على سير عملها النشط فى ترويج الحشيش بعين شمس وعزبة النخل والمرج، وأخباره مع الصبيان الذين يجندهم تباعًا، والكبار الذين يؤدى لهم خدمة التوصيل بنفسه فى أوقات محددة، تمطى السيد النحال ودفع بظهره إلى ظهر المقعد، ثم رمى بساقية الطويلتين إلى الأمام وهتف به:

ـ «عنتر»

ـ «أمرك.. يا معلم»

ـ «نريد حوالى خمسين سيارة نقل.. أو أكثر»

ـ «نقل بضاعة؟»

ـ «أجل..»

ـ «ما البضاعة التى سننقلها..؟»

ـ «لن ننقل بضاعة..»

ـ «إذن، فلم تريدها؟»

ـ «سنضعهم فى جراج»

ـ «تقصد أن نجمعهم من الشارع ونؤويهم فى هذا الجراج من قبيل الصدقة أو معونة الشتاء؟»

ابتسم السيد فى استخفاف لكثرة ما يثير به عنتر فى محاورات من هذا النوع..

ـ «فعلًا.. الشتاء قادم.. وهذه السيارات بحاجة إلى تدفئة..»

ـ «وإلى أن يأتى الشتاء سأكون دبرت للسيارات عددًا كافيًا من البطاطين»

ـ «ربنا الشافى يا عنتر.. بطاطين للسيارات؟»

ـ «وماذا أفعل لك؟ أكاد أجن من كلامك»

ـ «سأقول لك ماذا تفعل لى.. اسمع يا سيدى»

وراح يقص له قصة الأرض التى ستئول إليه بالشراء من أصحابها، وحتى لا يدفع ثمنها ويتركها خالية فقد فكر فى خلق استثمار لها قبل شرائها.. والأمر يتطلب التعرف على عدد من الشركات التى لا تملك مأوى لسياراتها لتأجير هذه الأرض كإيواء لها.

وبعد عدة أيام جاءه عنتر متهللًا:

ـ «وجدته..»

ـ «من؟..»

ـ «السيد فايز فودة.. أتتذكره..؟»

ـ «الذى يسكن فى شارع السباق؟»

ـ «إنه هو..»

ابتسم السيد فى استخفاف وهو يتذكر زبونها، ذلك الإقطاعى المفلس:

ـ «أليس هذا الذى ما زال مدينًا لنا بثمن أربعة قروش حشيش؟»

ـ «لا، ليس هو.. أقصد ليس صاحب السيارات..»

وراح يشرح للسيد قصة الحوار الذى جمعه ذات مرة مع فايز بك عن شلة الأنس التى يعقد لها سهرات مزاج من آن لآخر فى الروف المشجر الذى يعلو مسكنه، فمنهم رؤساء شركات.. ومنهم محامون لهم سمعتهم.. ومنهم أطباء مشهورون، وفيهم أحد أشقاء عضو مجلس قيادة الثورة الذى يدير شركة نقل بها أكثر من ثلاثمائة سيارة..

أزاح السيد ذراع الشيشة بعيدًا واعتدل فى جلسته، ثم أخذ يحملق به:

ـ «٣٠٠ سيارة؟ أنت متأكد..»

ـ «والله العظيم متأكد تأكدى من وجودى بجانبك الآن»

سرح السيد قليلًا .. ففهم عنتر أن قريحة السيد تبحث عن فكرة إلى أن سأله:

ـ «متى ستذهب إليه بالمعلوم..؟»

ـ «فهمتك يا معلم، إذن أنت تنوى أن ترافقنى إليه.. صح؟»

ـ «عليك نوور»

فتح لهما الخادم باب الفيلا التى تحتل آخر دورين فى العمارة .

جلسا قليلًا حتى أقبل عليهما السيد فايز بتمهل وهدوء وابتسامة بشوشة..

تأمله السيد متفحصًا هذا الروب الحويرى بأرضيته الداكنة وخطوطه البيضاء.. صافحه فايز فودة بأدب وسأله:

ـ «إذن، فأنت السيد عباس؟»

ـ «نعم يا فندم»

ـ «ظننتك أسن من ذلك.. ما زلت يافعًا..»

ـ «لكن الحياة لطّمتنى يا باشا..»

ـ «لا يبدو عليك ذلك.. وسيم.. ووجيه.. ورائق..»

ـ «شهادة نعتز بها يا فندم»

ـ «عنتر يؤمن بك.. ويقول إنك ستضع سوق الحشيش كله فى جيبك.. ذات يوم»

ـ «حلم بعيد المنال»

ـ «ليس بعيدًا، فالحشيش والكرة وأم كلثوم.. من أهم الأشياء فى مصر.. لأنها المغيبات التى يسرقون بها عقول الشعب»

فهم أنه يلكز عصر الثورة بما يستحقه فى نظره.. أليست الثورة هى التى استولت على ألفى فدان من إقطاعية أسرته؟.. هكذا أبلغه عنتر.. فضحك دون أن يعلق.

وظل صامتًا يبحث عن كلام إلى أن أنقذه فايز بك قائلًا:

ـ «عنتر قال لى إنك تقصدنى فى خدمة..»

ـ «أجل يا فندم.. فحضرتك لديك صديق يدير شركة بها ٣٠٠ سيارة نقل.. وأنا عندى أرض فضاء أريد تأجيرها كموقف وجراج لهذه السيارات.»

قطب فايز ما بين حاجبيه وراح يتذكر:

ـ «صديق؟.. و ٣٠٠ سيارة؟.. أوه.. صحيح.. ولكنها ليست سياراته..»

ـ «أكيد يا فندم..»

ـ «طبعًا أكيد.. وإلا كان جالسًا بجوارى الآن.. أين تقع هذه الأرض؟»

ـ «فى الزيتون»

ـ «كم مساحتها»

ـ «خمسة فدادين»

ـ «أرض مبانٍ؟»

ـ «تحيطها العمارات من كل جانب.. وفكرة البناء عليها مؤجلة الآن»

ـ «هل هى ملكك؟»

ـ «اعتبرها سيادتك فى حكم ذلك»

فغر عنتر مكاوى فاهَهُ من الدهشة وهو يتأمل معلمه فى صمت: «خمسة فدادين مبانٍ؟ يا قوة الله، أين عثرت عليها أيها الشيطان..؟ ولم لا تصحبنى معك فى هذه المشاوير يا ابن النحال؟ أم أنك خصصتنى للحشيش ولا أزيد من ذلك؟»

وصحا عنتر من تساؤلاته على رجله الرزين يمد يده فى جيبه ويخرج قطعة حشيش فى حجم علبة الكبريت مغلفة بعناية:

ـ «هذه تحيتى للباشا ولضيوفك الكرام..»

ابتسم فايز بأدب:

ـ «أنا لا أحيى ضيوفى بالمجان.. ثمنها سيكون بجيبك قبل أن تخرج..»

فقال السيد:

ـ «النبى قبل الهدية يا باشا»

رد عليه فايز:

ـ «لا نزيد أن نحشر النبى فى هدايانا خاصة لو كانت حشيشًا»

ضحك عنتر ببلاهة:

ـ «هل كان هناك حشيش أيام النبى..؟ والله يا باشا لا تكسف المعلم»

ابتسم فايز بك بعذوبة، وقال لمحدثه عنتر:

ـ «إذن، خذ كرم إلى الروف، وجهز لنا تعميرتين..»

ونادى عنتر كرم الخادم ثم خرج به، فاعتدل فايز فى مواجهة ضيفه الشاب:

ـ «أنا صرفت عنتر بأدب حتى لا يسمع ما سوف أقوله لك الآن.. وأرجو ألا يخرج عن اثنين: أنا وأنت»

ثم راح يحيطه علمًا بمن هو الرجل الذى يتمتع بشىء واحد لا ذنب له فيه وهو أنه شقيق لأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة. ولهذا السبب، فقد ربح منصبه ويتربح من منصبه الذى أتاح له مسئولية نقل كل السلع التموينية من مصادرها إلى الجمعيات التعاونية وصار غارقًا فى السلع، وغارقًا فى تحريك السيارات، وغارقًا فى أموال الصيانة والوقود، ومثل هذا المنصب يعوزه رجلًا لديه شهادة عليا فى إدارة الشركات والمشروعات، وصاحبنا لا يحمل إلا شهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة الميلاد..

أحس السيد النحال بفحوى هذه المقدمة الصريحة، وداخله الابتهاج، فهو لم يعد بحاجة إلى فهم من هو رجله القادم.. الرجل الذى سيمكنه من وضع يده على أرض مساحتها خمسة أفدنة.. أرض مبانٍ.. وبما أنه رجل يتربح، فمعنى هذا أن طريقه مفروش بالورود..

بادر فطرح سؤالًا إلى مضيفه ابن العز الأنيق:

ـ «لقد فهمت ما تصبو إلى شرحه لى، إلا أننى بحاجة إلى نصيحتك..»

ـ «دع هذا الأمر لى، سأعرض عليه موضوعك، وأبلغك بما توصلت إليه.. هيا بنا.. زمان كرم وعنتر جهزا التعميرة»

* * *

بعد يومين طلبه بالتليفون كما كان قد أوصاه.. وقال له على الفور: «تعال الآن.. وبدون عنتر»

* * *

فى أول جلسة الثانية مدّ يده فى جيبه وأخرج قبضة من الحشيش قال عنه إنه مدهش ووضعها على المنضدة .

ـ «حظك يا باشا.. قلت لى تعال فجئت فورًا.. كانت بجيبى.. لم أذهب هنا أو هناك..

على الفور عرفت أن سيادتك محظوظ.. وابن حظ»

تنهد فايز فودة بألم.. وقد لاحت فى عينيه علامات الأسى:

ـ «محظوظ وابن حظ مرة واحدة؟ صحيح كم من البلاوى تداريها الهدوم..»

أحس السيد أنه قلب المواجع على رجل ساء حظه فى الدنيا على غير انتظار .. عندما أخذوا أراضيه .. فكيف يكون محظوظًا؟

ـ «الدنيا لا تعطى كل شىء حتى لأصحاب الحظوظ يا باشا»

ـ «الدنيا إذا أعطت المحتاج صارت دنيا.. فبماذا تسميها إذا أخذت العز من أصحابه؟»

ـ «يسمونه ابتلاء.. أو اختبار.. أو محنة»

ـ «من هم الذين يسمونه هكذا»

ـ «أهل الدين»

ـ «وهل للدين أهل بعينهم؟. كلنا أهل للدين»

ـ «إذن، فهم أصحاب البلوى.. الذين يقولون ذلك»

ـ «هؤلاء لا يطلقون الحكم، بل يذرفون الدموع»

ـ «ليسوا جميعًا.. هناك من يخرج من محنته أكثر قوة»

ـ «يبدو لى أنك تعرف شيئًا عنى»

ـ «معلومات بسيطة.. قال لى عنتر إن الثورة أممت أملاكك»

ـ «معلومات بسيطة؟ أإلى هذا الحد صار الأمر بسيطًا؟»

ـ «أنا أقصد بساطة المعلومات»

صمت فايز فودة قليلًا وهو يتأمله بإعجاب:

ـ «عنتر قال لى إنك مثقف وجسور»

ـ «جناحان.. قد لا يساعدان على الارتفاع إن لم يكن معهما حظ عجيب..»

ـ «أجنحة الأسياد الجدد هى التى تكسب»

ـ «تقصد ضباط الثورة»

ـ «وهل هناك غيرهم؟ عمومًا.. دعنا فى موضوعنا، الرجل وافق على طلبك.. وبما أنكما سوف تتعاملان سويًا بعد أن أرتب لكما اللقاء المطلوب فيجب أن تعرف من هو.. إنه يا سيدى حشمت بركات..»

ـ «أسمع عنه.. إذن، فهو شقيق أشرف بركات»

ـ «بالضبط.. حصل على هذا المنصب فى هوجة توزيع المناصب على الأهل والأقارب.. تمامًا كما يوزعون القصور على أنفسهم.. واحد يدير عزبة وهو بالكاد يصلح عاملًا أو خفيرًا بها.»

ـ «وهل وافق على طلبى؟»

ـ «وهذا مرهون بموافقتك على طلباته.. هؤلاء الناس لا يخدمون لوجه الله، أو للمصلحة العامة.. فمصلحتهم الشخصية فوق كل اعتبار..»

ـ «وكيف يمكننى أن أرضيه أو أتصرف معه؟»

طرح السيد سؤاله وهو يوارى الفرحة التى رقصت فى قلبه.. الفرحة لأنه وجد من يرشوه ليفتح له الأبواب..

ـ «لا أعتقد أنك تعوزك الحيلة فى ترويضه.. أنت ذكى وطموح.. وهو جائع.. سد فمه.. وكلما اقتربت منه ستعرفه على حقيقته.. فهو يحب الطعام الفاخر.. والحشيش الفاخر والخمر المعتق.. لا يعتق شيئًا.. ماكينة.. وتلك هى مفاتيحها التى لا تدور إلا بها..»

فكر السيد قليلًا، ثم أتى باقتراحه الطازج:

ـ «سيكون تعرفى عليه فى حفل أقيمه على شرفه.. يدعو إليه كل معارفه.. سأقيم له مأدبة مذهلة وبها كل هذا الذى قلته الآن..»

ـ «إذن. رتب نفسك على ذلك.. وأين ستقيم له هذه المأدبة؟»

لم يجد لديه ما يمكن أن يقوله سوى: «كازينو صفية حلمى»

ابتسم فايز فودة فى إشفاق: «هذا للطعام، وأين مكان الحشيش؟»

ارتعد جسد السيد النحال.. وداخله شعور بالضآلة والنقص..

ولاذ بالصمت.. والحرج.. فأخرجه منهما فايز:

ـ «لا تحمل همًّا.. الروف الذى رأيته فى الزيارة الماضية.. سأتبرع لك به فى هذه الليلة.. سأترك لك تنسيق الحفل مع كرم وعطية.. الخادم والسفرجى.. لقد أشفقت عليك عندما كدت تبكى الآن..»

ـ «فعلًا.. كدت أبكى.. فما أسوأ أن تكون قلة الإمكانيات سببًا فى اغتيال بهجتك»

ـ «هذا بالنسبة لك، أما أنا فقد كان الثراء هو السبب فى اغتيالى أنا وعائلتى»

وعند الباب تصافحا بحب

واحد متورط فى الخروج مطرود من جنته..

والثانى يؤدى كل الرذائل حتى يقترب من هذه الجنة..

* * *

وفى اليوم المشهود الذى ظل يعد له أسبوعًا ، بدا السيد النحال متأنقًا أمام ضيوفه فصار محط أنظارهم.. وفى لحظة مواتية مد يده فى جيبه وقبض على قطعة كبيرة من الحشيش وقصد أن يرفع صوته وهو يقدمها لفايز فودة قائلًا:

ـ «تحيتى لحشمت باشا وضيوفه الكرام»

ودارت الأحجار الكريمة.. وانتشى الهواء برائحة الحشيش المعبق..

وجاء دوره..

أسلمه كرم بوز البوصة ملقيًا عليه التحية التقليدية:

ـ «مساء الخيييير»

فالتقمها وراح يشد الدخان الثرى بجهد عفى، فاشتعل الحجر الفاخر بلهب اندلع فوقه.. فهلل فايز:

ـ «يحرق عدوينك»

فتذكر على الفور نفس هذا التشجيع الذى أطلقه له عنتر مكاوى فى أول لقاء بينهما على مقهى الباطنية.. فاستبشر خيرًا.

ومع هذا فلم يتحدث.. وظل فى انتظار دوره.. يسمع أحاديثهم.. ولا يشارك بها.. فهؤلاء الضيوف الأكابر لم يقم فايز فودة بتقديمهم إليه اسمًا اسمًا كما تقتضى الأصول.. فهل نسى ذلك الأمر أم تناساه؟ وهل إذا كان قد تناساه.. فلماذا؟.. هل استهانة به أم إشفاقًا عليه من أن تزعجه مناصبهم؟

مال حشمت بركات نحوه متسائلًا:

ـ «أراك سارحًا.. مالك يا رجل؟»

لم يجد ما يقوله:

ـ «لا شىء، إنها أحوال الدنيا»

ـ «أراك أنيقًا.. وصاحب مزاج.. فمن منكما تحرش بالآخر أنت أم هى؟»

ـ «هى التى تحرشت بى وما زالت»

ـ «أعطها ظهرك، لا تهتم بها، خذ حظك منها على غفلة، وعاملها بحذر»

كان فايز قريبًا عندما سمع العبارات الأخيرة من حشمت فقال:

ـ «يبدو أنك تتحدث عن امرأة يا حشمت بك»

قال حشمت مبتسمًا فى خبث: «أجل.. امرأة إذا أقبلت عليك فهذا لكى تدبر عنك، وإذا جاءتك طوعًا بين أحضانك فذلك لأنها خانت توًّا حضنًا آخر..»

قال فايز فودة «أعوذ بالله»

ضحك عنتر مكاوى لهذا الكلام العالى والذى تمكن من فهمه وهو يتابعه، فنادى بصوت عال:

ـ «لا يا فايز بك.. الباشا يتحدث عن الدنيا وليس عن امرأة»

فأسرع فايز قائلًا: «أيضًا أعوذ بالله»

فقال حشمت:

ـ «الثورة .. والدنيا.. لا أمان لهما»

ثم وجه حديثه إلى السيد النحال:

ـ «الثورة استولت على ألفى فدان من هذا الرجل»

فقال فايز معلقًا: «يا سيدى.. مبروك عليهم، وعلى من وزعوها عليهم»

انتبه إلى حديث هادئ من ضيف له بشرة بيضاء لامعة وشارب رفيع وأنف مدبب يعتنى بأناقته بشكل ملحوظ ويتحدث بثقة وتأن. وكان يخاطب فايز فودة:

ـ «لو كنت تقولها من قلبك يا فايز، فالله سيطرح لك البركة فيما تبقى عندك»

وتدخل حشمت بركات مخاطبًا المتحدث:

ـ «يا أستاذ حلمى أنت تتحدث من موقع المتفرج، وهذا الرجل لم يلتقط أنفاسه بعد من هول الصدمة»

تدخل فى الحديث رجل يجاور حشمت بك فى جلسته، له هيئة المعلمين:

ـ «يا أستاذ حلمى أنت ذهبت إلى الثقافة وأمسكت بالقلم دون أن تنسى أنك قادم من معسكر الثوار عندما كنت ممسكًا بالسلاح.. لا أحد فينا لا يتحيز للثورة مثلك.. ولكننا لا نستطيع أن نضع فايزًا معنا فى صفوفنا بسهولة.»

كان المتحدث هو معوض الجارحى.. أحد كبار الموظفين فى مؤسسة النقل والصديق المقرب لرئيس المؤسسة حشمت بركات والملاصق له دومًا فى كلّ الولائم والمناسبات..

فقال حلمى عبد الباقى: «أنا لو تعاملت مع فايز من موقعى كضابط صغير يفخر بمشاركته المحدودة فى الثورة، وموقع فايز كإقطاعى يقف على الشاطئ الآخر منا، لما كنت بينكم الآن.. فايز صديق قديم، ومؤثر، ولم نكن نعتبره فى منطقتنا قبل الثورة ابن الأكابر ونحن أولاد الرعايا.. أنا لا ألومه، ولكننى أنصحه وأشجعه حتى يتجاوز محنته.. فأنا أعلم به منكم..»

فعلق حشمت على ذلك قائلًا:

ـ «ولو لم تكن علاقتكما القديمة معروفة.. هل كانوا سيتركونك فى حالك وأنت تصادق أحد الإقطاعيين حتى الآن..؟»

ـ «آسف يا سيد حشمت.. ما تظنه هو الخطأ بعينه.. ومن قال لكم إن جمال عبد الناصر لا يعترف بالعلاقات الإنسانية ولا يؤمن بالصداقة..»

فتصدى لتأييده السيد ممتاز إبراهيم زميل معوض الجارحى فى مؤسسة النقل :

ـ «معلوماتنا أن الرئيس هو الذى شجعك فى العمل الدبلوماسى بعد حصولك على ليسانس الحقوق..»

فراح حلمى عبد الباقى ـ بعد هذا التنويه ـ يوضح لهم السر فى هذا التحيز من قائد الثورة لواحد من تلاميذه تمنى أن يتفرغ كل عمره للقانون الذى يحبه، وراح يذكرهم أن عبد الناصر عندما لم يوفق فى دخول الكلية الحربية التحق بكلية الحقوق لعام واحد، إلى أن أعاد محاولة الدخول للحربية فى العام التالى وقبلوه.. «المهم أن تحب ما تفعله وتفعل ما تحبه».. وهنا قال فايز فودة بتخابث مقصود:

ـ «ليته كان استمر فى دراسة الحقوق ، كنا كسبنا المستشار جمال عبد الناصر»

وانفجر الحضور بالضحك بما فيهم فايز فودة الذى سارع فأشار لهم إلى المأدبة المعدة فى الطرف الآخر من الروف تحت مظلة مشيدة على أعمدة دائرية تحيطها صناديق الزهور:

ـ «تفضلوا .. العشاء جاهز»

ولما تحركوا واحدًا إثر الآخر نادى حشمت بركات السيد النحال وانتحى به جانبًا، وراح يسأله عن ملكية الأرض ومساحتها والشوارع المحيطة بها. ثم أشار لنائبه ممتاز إبراهيم لينضم إليهما فأقبل مسرعًا، فقال له:

ـ «سترافق الأستاذ السيد بعد غد لمعاينة الأرض التى سنستأجرها منه جراجًا لسيارات المؤسسة.. تفاهما معًا، وجهزا لى مسودة العقد..»

ولما تحركا نحو المائدة تحرك خلفهم السيد النحال وهو يوارى ذهوله ونشوته، فقد زادت مساحة طاقة النور فى جدار الأمل، تلك الطاقة السماوية التى كان يرقب اتساعها منذ كانت ثقبًا أرسل شعاعًا سحريًّا غامضًا بعد زيارته لفيلا حكمت وبشاير..

عرف أن حلمى عبد الباقى لا يشرب ولا يحشش، وأن «الماكينة» حشمت بركات بصاحبيه معوض الجارحى وممتاز إبراهيم يرقت عيونهم بالامتنان عندما اقترب عنتر مكاوى من المائدة الحافلة ونثر فى أركانها زجاجات الخمر المعتق ذات الأسماء الشهيرة.. وحولها الكئوس الرشيقة ووعاء مكعبات الثلج اللازم.

وهنا أعلن فايز فودة أن هذه الوليمة لا يملك إلا شرف تقديم مكانها للسيد النحال الذى عقدها على حسابه ليتعرف على هذا الجمع السعيد..

لم يتبادلا الارتياح هو وحلمى عبد الباقى الذى لم يعرف عنه أكثر مما قيل عن انتقاله من حقل العمل العسكرى إلى حقل العمل الثقافى والقانونى.

وكان من الواضح أن حلمى عبد الباقى بكل التزامه ودماثته لا يجد حرجًا فى قبول دعوات صديقة فايز فودة، رغم ما بها من فقرات مزاجية لا تتمشى مع ثقافته الخاصة.

أما ما خرج به السيد النحال بارتياح كامل، فهو ما رآه بأم عينيه لذلك الوقار المفقود وتلك الحالة المزرية التى تورط فيها حشمت بركات عندما شرب حتى الثمالة وفقد عقلة واتزانه وأتى بأحاديث من عالم اللاوعى تثير الضحك أحيانًا والإشفاق أحيانًا أخرى.. وكان فايز فودة رزينًا باسمًا فى ثبات وهو يستقبل هذا الانفلات بما يشير إلى تعوده عليه ولم يتدخل سوى بإشارة ناصحة لممتاز إبراهيم: «**لا تثقل أنت الآخر فى الشراب.. ألست أنت الذى ستقود به سيارته؟..**»

ولما هم السيد بالانصراف مكتفيًا بهذا الكم من الدهشة وهو يرى هذا الكبير غارقًا فى الطفولة والعبث والانفلات أشار له فايز فودة بالبقاء هو وعنتر:

ـ «سأقوم بتوصيلكما بسيارتى.. لى مزاج فى التمشية رغبة فى الانتعاش..»

وفى الطريق قال لهما فايز فودة:

ـ «**ما رأيتماه قليل من كثير.. لأن الجلسة خلت من باقى الصحبة التى تشاغبه وهو مسطول فينزعون منه ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. خاصة ما يقوله عن شقيقة عضو مجلس قيادة الثورة الشهير**»

وأسهب فايز فودة فى سرد بعض التفاصيل التى يتذكرها من اعترافات حشمت بركات تحت وطأة المغيبات المجانية أيًا كان نوعها: حشيشًا كانت أو خمورًا معتقة، ولا ينسى أن يعلق ساخطًا:

ـ «**هذه عينة من قادة مصر الجدد.. عينة جاءت من مستنقع الوضاعة.. فهذا المخمور المهلوس الذى أناديه نفاقًا بالبك والباشا ينحدر من أب فقير كان يمتلك دستة من الأولاد**

وكثيرًا ما كان صنف الطعام ينعدم تمامًا فى منزلهم.. وقال لنا وهو يفخر بذكائه المبكر إنه كان يحل هذه المشكلة باصطحاب أحد أخواته الصغار ويضع له مسحوق الششم فى عينيه ويرسله إلى محطة القطار ليستجدى المسافرين.. ولأننا نعلم أن أشرف بركات هو الأخ الأصغر غير الشقيق له فقد دحرجه واحد من الصحبة بخبث ليحكى لهم عن دور شقيقه أشرف فى مسألة الشحاتة.. ليلتها قهقة عاليًا: طول عمره شاطر كان يتفادى إيذائى له إن لم يأت بحصيلة جيدة من الشحاتة.. ولم أكن أعلم أنه يسرق نصفها لنفسه.. مصيبة.. طول عمره مصيبة».

ثم يروى لهم وهو مخمور بعض قصص أخيه فى عشق الحشيش.. ومنها أنه عندما زار سوريا أيام الوحدة طلب من سكرتيره أن يسأل رجال المشير عبد الحكيم عامر عن المصدر الذى يجلبون منه الحشيش لرجلهم، وعرف أنهم يأتون به من تاجر يبيع الأفيون فى سوق الحميدية. وتطوع هذا التاجر لجلب الحشيش المعتبر لهم من لبنان، فأوصى السكرتير أن يتصل به ويأتى له منه بعدد من الأصناف المختلفة ليختار أفضلها. ويقول السكرتير ضاحكا:

«إننى لم أكن أعلم أن الأمر سينتهى بإعادة كلّ هذه الأصناف مرة أخرى إلى التاجر بحجة أنها مرفوضة ولكن بعد اجتزاء قطعة من كل صنف.. ليحصل أشرف بركات على عدد من القطع التى تكفيه مدة إقامته فى سوريا.. بالمجان..»

ـ «سوف يصبح سيد هذا البلد»..

لم يكن هذا رأى حشمت بركات فى أخيه أشرف الضابط الثائر.. ولكنه نقلها لهم من أشرف نفسه، فقد قالها هكذا صراحة، ومتى؟ قبل قيام الثورة. وفى عز أيام تشرده وإفلاسه وهروبه من السلطة الذين دوخهم بحثًا عنه..

قالها مغتاظًا لأصدقاء القرية الذين كان يستولى على سجائرهم بالقوة.. ولما أخفوا عنه السجائر ذات مرة.. شتمهم وأهانهم بأقذع الألفاظ، ثم قال:

ـ «أتخفون سجائركم عنى؟ غدًا يا كلاب ستلعقون حذائى عندما أصبح سيد هذا البلد»

ليلتها ـ يتذكر فايز فودة ـ أنه وسط غيبوبتة الثملة أطلق حشمت بركات ضحكتة

الخشنة المتحشرجة هاتفًا بسرور:

ـ «وسوف يصبح هو السيد فعلاً.. أنا أعرفه.. أخى لا يتوقف عن تشغيل مخه، أخى يجيد احتواء الناس والمواقف والأحداث لصالحه، أخى كان صادقًا عندما أطلق هذه النبوءة عن نفسه، أخى سيصبح ملكًا؛ لأنه ومنذ ولادته يرتدى تاج الدهاء»..

اختار السيد النحال أن يغادر سيارة فايز فودة قبل الوصول إلى منزله، بدعوى رغبته فى السير طلبًا لانتعاش ما بعد الحشيش والخمر، وكان آخر ما قاله له فايز هو أن يكسب ممتاز إبراهيم عند عمل العقد ويساومه:

ـ «لا تخجل منهم.. ها أنت قد رأيتهم بنفسك..»

وكانت هذه الكلمات مقدمة لانسياب خواطرة وهو يسير مذهولاً:

«فعلا لقد رأيت بنفسى.. وربما أكون قد رأيت نفسى، فكيف تلتقى حالتى بمثل حالة هذا الثائر الحشاش أشرف بركات وبكل هذه الدقة؟ فعباس النحال أجبره الفقر أن يتسول ويسأل الناس الصدقة فى الشوارع، وها هو التاريخ كان قد سبقنا وسجل واقعة مماثلة لأناس قبل الثورة اختاروا الشحاتة حلا للعوز والحاجة وطردًا لغول الجوع الذى يطيح بالأفئدة.. ما هذا الذى رأيته وسمعته الليلة؟.. إن ما يطلقه فايز فودة من غضب على الثورة ورجالها هى زفرة من قلب موجع معبأ بالديناميت على أناس استولوا على أملاكه.. وكانت قلوب الفقراء قبل الثورة معبأه بالديناميت ضد الأمراء والإقطاعيين الذين استولوا على أرزاقهم، وهاهم أعوان الثورة كما يقول فايز يستعدون للسطو على مكاسب الفقراء.. ترى من يأكل من بدعوى العدل؟.. ومن يبطش بمن بدعوى الأمن..؟ ومن يبث الرعب فى قلب من طلبًا للخضوع.؟..»

ولم تكن هناك غشاوة أمام عينيه، فقد كان يرى أكثر من غيره. ولكنه رغم هذا أحس أن بصره اليوم كالحديد، وأن بصيرته بعثت إلى ظلمة المجهول مخروطًا هائلاً من الضوء الكاشف.

* * *

ولما انتهى نقاشة مع السيدة مارى إلى ضرورة عرض الأمر على السيدتين حكمت

وبشاير قبل أن يحضر مندوب المؤسسة لمعاينة الأرض، انطلقت به إلى الزيتون دون أن تتمكن من إخفاء دهشتها أولاً ثم سرورها ثانيًا لهذا الإنجاز السريع الذى قام به هذا الشاب الأنيق السيد النحال.

كانت ترمق هدوءه وأناقته بطرف خفى وهو يجلس بجوارها فى سيارتها الصغيرة، وتتعجب لأنها لم تعط اهتمامًا لكل ما قاله عن نفسه وعن نشاطاته، فحالته الإجمالية لا توحى أنه رجل أعمال كما أسمى عمله، أما وقد جلب توظيفًا لأرض حكمت وبشاير فى ظرف أيام معدودة، فهذا ينم عن كفاءته.

وقبل أن يدخل الفيلا قالت له: «**ربما لا توافقان ـ حكمت وبشاير ـ على عمل توكيل لك، هما يتوجسان خيفة من مثل هذه الأمور..**»

* * *

قرر وهو مقدم على التفاوض مع سيدتين ـ يجب أن يكونا فى نظره من ساكنات القبور ـ أن يستخدم كل قواه الناعمة فى استمالتهن، وأن يدخل فى التفاصيل من منطلق أن هناك موافقة على المبدأ الأساسى وهو توظيف الأرض فيما يراه صالحًا لها.

بدأ بإلقاء الطعم الجاذب للسمك الجائع، فقال إنه اتفق مع عدة شركات لإيواء خمسين سيارة مقابل خمسة جنيهات فى الشهر للسيارة الواحدة.. والبقية تأتى. وراح يرقب وقع هذا الطرح المفاجئ على وجوههما.. هناك خيط رفيع من الدهشة على وجه حكمت، ورفرفة من سكون الرضا على وجه بشاير، أما مارى فجلستها التى بها اعتداد أشارت إلى فخرها بنفسها وباكتشافها لهذا القادم الجديد.. قادم أتى بما لم يأت به الأوائل.. ومع هذا، فقد سألته حكمت التى يراها لأول مرة:

ـ «**قلت البقية تأتى.. ما معنى هذه الكلمة؟..**»

ـ «**هذه السيارات يلزمها أعمال صيانة وتشحيم وتزويد بالوقود وإمداد بالكاوتشوك وهذه فرصة لإقامة هذه الخدمات فى الموقع وتحقيق مكسب من ورائها**»

تبادلن ـ كلهن ـ النظرات، وكلها نظرات رضا.

فسألته حكمت مرة أخرى:

ـ «ومن سيقوم بعمل هذه الخدمات وإدارتها.؟»

أجابها فورًا: «سأتفرغ لذلك.»

عادت إلى طرح سؤال آخر: «ألست برجل أعمال، أو تترك كل أعمالك وتتفرغ لهذا الموضوع؟»

تعمد أن يعلق ابتسامة إشفاق على شفتيه:

«ومن قال إن التفرغ سيكلفنى يومى كله، سأتفرغ الأسابيع الأولى فقط، بعدها سيتولى رجالى السير على ما رسمته لهم.»

تعجبت بشاير: «رجالك؟.. من هم؟»

ـ «موظفين»

ـ «كم عددهم؟»

ـ «أربعة فى أول الأمر وإذا أقمنا الخدمات سيزيدون بالطبع.»

ثم صمت قليلًا وأدار وجهه ناحية الشباك المطل على الأرض وأشار إلى هناك وهو يقول.

ـ «وقبل أن نبدأ فى العمل سنقيم جدارًا طويلًا هنا.. جدارًا يفصل الفيلا عن الأرض، جدارًا سيحميكم من الإزعاج.. ثم نفتح بوابة فى منتصف السور الممتد مع الشارع لفصل حركة العمل عن حياتكم هنا. المهم.. لا تحملا همًّا لكل هذه التفاصيل فهى مسئوليتى، وسأحل محلكما بموجب توكيل رسمى»

«شهقت بشاير: توكيل؟»

قال بهدوء: «أجل.. توكيل..»

أوقفتها حكمت بإشارة من يدها:

«سننظر فى هذا الأمر فيما بعد.. المهم.. كم هو المرتب الذى تطلبه لنفسك»

صمت قليلًا، ثم طرح برأسه إلى الخلف وأجابها بثقة:

ـ «لست من النوع الذى يعمل بمرتب؟»

ـ «إذن .. فكيف ستعمل..؟»

ـ «أنا شريك بنسبة من الربح بعد خصم المصاريف من الإيراد».

ـ «كم هى هذه النسبة..؟»

ـ «الربع..»

ـ «هذا كثير.. هل أنت تمتلك ربع الأرض حتى تقول ذلك.؟»

ـ «أنا قلت ذلك؛ لأنى لا أملك حصة فى الأرض»

ـ «لا.. لا.. هذا كثير..»

قرر أن يصل بالمجادلة إلى نقطة الذروة.. ثم يهددهما بالانسحاب.. وإذا أجبراه على البقاء فسوف يمكّنهما من ثمرة انتصار ويخفض حصته إلى الخمس، وأمام مباهج الانتصار سيوقعان ويحرران له توكيلًا..

قالت حكمت:

ـ «خذ نصيبك من أصل الإيراد.. وادفع منه للموظفين، وأقم الجدار على نفقتك.. وأقم البوابة أيضًا»

قال للجميع:

ـ «لا تحملونى ما لا أطيق . وأنا ما جئتكم إلا لصالحكما»

قالت بشاير:

ـ «تعلمنا أن من يأخذ بسهولة يفرط بسهولة»

وأضافت حكمت:

«والمرء لا يعلم قيمة الشىء إلا إذا أنفق عليه من ماله وجهده»

ثم قالت بشاير:

«وما أسهل أن تغامر بمال غيرك ولا تغامر بمالك..»

وأمام هذه المسلمات التى استوعبها قال لهن:

ـ «الأفكار الذكية هى رأس المال الحقيقى لأصحابها».

فواجهته بشاير:

ـ «وسوف تنال ما تستحقه مقابل فكرتك الذكية».

فذكرتها حكمت:

ـ «كانت لدينا أفكار كثيرة لكنا لا نملك الصبر والتحمل».

وتحدثت مارى لأول مرة:

ـ «إذن، فأنت شريك بالمجهود الذى قوامه الصبر والتحمل»

فربت السيد براحتيه على ركبتيه متأهبًا للوقوف:

ـ «ما دام الأمر كذلك فلماذا تكلفوننى مالًا؟ أرجو أن تقبلوا اعتذارى وانسحابى، ولا أخفيكم سرًّا أننى تعرفت على مكان آخر بحى النعام .. أصحابه يطاردوننى عندما عرفوا أننى أملك أكثر من خمسين سيارة سوف أزيدهم إلى مائة أثناء العمل»

جذبته حكمت من الجاكت:

ـ «لماذا لم تذكر لنا هذا الرقم.. مائة سيارة.. اجلس.. لا تتعجل»

ـ «يجب أن أتعجل حتى أتصرف بسرعة، فالجهة المعنية سترسل رجالها غدًا للمعاينة»

ومع قرب انهيار المفاوضات، سألته بشاير سؤالًا أسعده:

ـ «وماذا ستكتب فى التوكيل؟»

لم يجبها إجابة مباشرة، لكنه طرح عليها بعض الأسئله:

ـ «هل إذا قمت بتوقيع عقد مع شركة ما ستحضران معى للتوقيع..؟»

«وهل إذا قمت بعمل ترخيص للسور والبوابة هل ستقومان بهذا؟»

«وهل إذا قمت بصرف الإيراد سآتى لأخذكما معى للصرف؟»

«هل إذا حدثت مشكلة مع شركة ما وتطلّب الأمر عمل محضر بالقسم سآتى لأخذكما معى لعمل هذا المحضر؟»

وقد حصد ثمرة طرحه بسرعة ملفتة، فقد قالت له بشاير:

ـ «اعتبرنى موافقة.. وأنت يا حكمت؟»

فقالت حكمت:

ـ «وأنا أيضًا»

فسارع على الفور بطرح ورقته الرابحة :

ـ «ولذا، فقد خفضت نسبتى إلى الخمس»

وتهللت الوجوه.. ودق قلبه دقة الفرح ثم طرق حديده وهو ساخن:

ـ «هل سأقيم مكتبًا للإدارة بالأرض.. أم من الممكن أن أشغل غرفة بالدور العلوى؟»

وعلى الفور قالت له حكمت:

ـ «الدور العلوى لا يشغلة أحد.. يمكن استخدامه كله أو بعضه.. مقابل إيجار»

وازدادت دقات الفرح فى قلبه، وهمس لنفسه:

ـ «وأخيرًا ستسكن فى فيلا يا ابن النحال»

* * *

وكانت عتبته الأولى صيغة توكيل اتفق عليها مع محامٍ ضليع، وكان هدفه الحقيقى هو إطلاق يده فى التصرف فى هذه الأرض، فوضع عبارات ذات شكل وديع وجوهر وضيع، وقد يمكننا أن نؤرخ لعبارة ذات معنى تختتم بها نصوص التوكيلات الحساسة العبارة التى تقول: لا يجوز إلغاء هذا التوكيل إلا بحضور الطرفين.. فالسيد النحال سوف يؤكد فيما بعد أنه الواضع الحقيقى لهذه العبارة التى فتحت له طريق الصعود، ومنعت موكلتيه من إلغاء التوكيل لإنقاذ أملاكهما من براثن يد ذعمة لوكيل شرس لم يلتفتا إلى طول أظافره كما لم يلتفتا إلى حدة الأنياب الجارحة فى ثغره الجميل.